فكرة الجوهر عند ابن سينا

خالد الهادي شرف الدين

قسم الفلسفة – كلية الآداب والعلوم بدر – جامعة الزنتان

الملخص

إن الجانب الديني عند ابن سينا لفكرة الجوهر له صلة وثيقة بمسألة الإحداث من العدم ، والخلق المستمر والمتجدد ، ومفهوم الجوهر في الفكر الإسلامي يختلف عن ما هو موجود في الفكر السابق للفلاسفة المسلمين ، وهذا دليل على وجود فلسفة إسلامية وليس كما يعتقد البعض بأنها فلسفة يونانية كتبت بلغة يونانية.

المقدمة

لم يكتفِ المسلمون بجمع التراث اليوناني ونقله إلى الغرب اللاتيني ، بل لقد أبدعوا هم أنفسهم آثاراً علميّة جليلة ، وكانت لهم إضافات نوعية مهمة سبقوا بها العلماء الأوروبيين فأضافوا إلى التراث القديم الكثير من ذوب عقولهم وعصارة أدمغتهم وأعصابهم ، ووهبوا العالم الأداة الفعالة التي مكنته من تحقيق هذه الإضافات وإنجازها على خير وجه .

وإذا نظرنا إلى تاريخ الفلسفة سنجد أنها تقوم على مشكلتي الوجود والمعرفة، أي الواقع والفكر والجوهر هو الدعامة الأساسية لهاتين المشكلتين، فالجوهر والوجود شيء واحد أساساً والجوهر لا يقوم إلا على كونه موجوداً، ولا يكون جوهراً غير موجود .

وفكرة الجوهر من المشاكل التي استمرّت خلال مراحل الفكر بأنواعها منذ الفكر المصري القديم والهندي والفارسي والصيني واليوناني وحتى العصور الحاضرة ،وهذا ما يتضمنّه هذا البحث كعرض تأريخي ،ابن سينا خالف اليونانيين في هذا الموضوع في كثير من المفاهيم والدوافع والأدلة والهدف ولم يكن الخلاف بينهم دينياً فقط بل هو خلاف عقلي فلسفي أيضاً.

وتأتي أهمية هذه الدراسة أننا ندرك من خلالها إلى حد كبير مفهوم الجوهر عند ابن سينا، ثم إنه من خلالها نستطيع أن نقف على الكيفية التي كان يعالج بها هذا الفيلسوف مشكلة الجوهر.

كما تعدّ هذه الدراسة مساهمة في إثراء النقاش العلمي الدائر حول مفهوم الجوهر عند ابن سينا، الذي يشغل بال الكثير من الباحثين نظراً لأهميته في الفكر الفلسفي .

يوضح ابن سينا [1] معنى الجوهر وكيفية اكتشافه وكيفية التفريق بينه وبين الأعراض ، ويضيف عدة معاني تتضمن خواص الجوهر وصفاته ، ويفرق بين الجواهر المادية التي تقبل الإشارة وابن سينا باعتباره فيلسوف مسلم يرفض إطلاق اسم الجوهر على الله سبحانه وتعالى- خلافاً لما يقوله اليونان على الله- ، لأن لفظ جوهر يطلق على الأشياء التي تدخل ضمن ممكن الوجود الذي يحتاج إلى غيره ، والله هو واجب الوجود والذي لا يفترض أن يمتنع وجوده خلافاً لممكن الوجود الذي يستوي وجوده وعدم وجوده.

[1] - * هو علي أبو علي الحسين بن عبد الله بن علي بن سينا ، ولد سنة 370هـ - 980م ، توفي سنة 482هـ - 1037م ، ابن أبي أصيبعة. 1965ف .عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق نزار رضا. ج3. بيروت لبنان .منشورات مكتبة الحياة .ص3 .

هناك أساس ديني إسلامي – يجب توضيحه- هو الذي يجعل لفكرة الجوهر عند مفكري الإسلام طابعاً متميزاً عن فكرة الجوهر عند اليونان لأنه توجد فكرة الأحداث من العدم واستمرارية الخلق والتي لم تكن معلومة عند اليونان .

ستتناول هذه الدراسة إن شاء الله ((فكرة الجوهر عند ابن سينا) وستكون مباحثها متضمنة لمقدمة يتم فيها عرض ما تتضمنه الورقة من مطالب، وستستخدم المنهج التاريخي ، والمنهج المقارن ، أما المطالب التي ستتطرق لها هذه الدراسة فهي :

الجوهر عند ابن سينا، تعريف الجوهر، مراتب الوجود، جوهر النفس عند ابن سينا، خلود جوهر النفس، دور الجوهر في المعرفة

وسوف يتم ذكر النتائج التي ستتوصل إليها هذه الدراسة، وأهمها : حتى وأن تأثر ابن سينا بالثقافات الأجنبية فإنه انتقدها وأضاف إليها وهدم فيها ما يستحق الهدم وما لا يتماشى مع العقيدة الإسلامية ، وطور منها ما يخضع للتطور.

مشكلة الدراسة:

يعتقد الغرب أن العرب ليس لهم فلسفة بل أن فلسفتهم عبارة عن أفكار وفلسفات يونانية كُتبت باللغة العربية وهذه الدراسة جاءت لتوضيح كذب هذه المزاعم، والتأكيد على أن للعرب والمسلمين فلسفة خاصة بهم.

أهداف الدراسة

1 . بالرغم من تعدد الأهداف التي ترمي الدرا سة إلى تحقيقها إلا أن الهدف الرئي سي هو تو ضيح فكرة الجوهر عند ابن سينا.

2. تو ضيح مفهوم الجوهر وإبراز الرؤيا العقلانية التي امتاز بها ابن سينا في تو ضيح هذه الفكرة وا ستخدامها كأدلة لإثبات وجود الله . والتأكيد على حدوث العالم ، و القدرة الإلهية وهو ما يختلف عن آراء اليونان.

أهمية الدراسة:

1. تعد هذه الدرا سة نافذة من خلالها ندرك إلى حد كبير مفهوم الجوهر في الفكر الإ سلامي ، ثم إنه من خلالها تـ ستطيع أن نقف على الكيفية التي كان يعالج بها مفكروا الإ سلام المـ شاكل الفل سفية وكيفية الدفاع عن العقيدة الإ سلامية وتو ضيح الآراء الفل سفية من منظور إ سلامي يعتمد على القرآن ، والسنة النبوية الشريفة .

2. تعد هذه الدراسة إسهاماً في العملية الهادفة تكوين تراكم معرفي في هذا النوع من الدراسات .

3. كما تعد هذه الدرا سة مـ ساهمة في إثراء النقاش العلمي الدائر حول مفهوم الجوهر ، الذي يشغل بال الكثير من الباحثين نظراً لأهميته في الفكر الفلسفي .

منهج الدراسة

استخدمت هذه الدراسة المنهج التاريخي (الوثائقي) وكذلك المنهج المقارن.

المطلب الأول : علـم الطبيعة

يبحث هذا العلم عند ابن سينا في المادة والصورة ، والأجسام جميعاً مركبة من مادة هي محل ، وصورة تحل في هذا المحل ، ونسبة المادة إلى الصورة هي كنسبة النحاس إلى التمثال : (الأجسام الموجودة بما هي واقعة في التغير وبما هي موصوفة بأنحاء الحركات والسكونات) (مرحبا ،2000 ، ص511).

تعريف الجوهر

يوضح ابن سينا معنى الجوهر وكيفية اكتشافه وكيفية التفريق بينه وبين الأعراض فيقول : (وإذا أردنا تحقيق الجوهر احتجنا أن نقدّم أمامه مقدّمات فنقول إذا اجتمع ذاتان ثم لم تكن ذات كل واحد منهما مجامعة للأخرى بأسرها كالحال في الوتد والحائط فإنهما وإن اجتمعا فداخل الوتد غير مجامع لشيء من الحائط ، بل إنما يجامعه ببسيط..) (نفس المرجع السابق ، ص236 ، 237 .)

ويؤمن ابن سينا بأن النفس جوهر مستقل عن البدن وتعيش بدونه وهو بهذا يوافق أفلاطون رغم أنه من ناحية أخرى ينحو منحى أرسطو عندما يقول إن النفس صورة للبدن لكنه لا يتفق مع أرسطو الذى يقول إن النفس مكملة للبدن ، فهي عنده جوهر مضاد للبدن .

مراتب الوجود

يتفق ابن سينا مع أستاذه الفارابي في ترتيب الموجودات وتأثير الأعلى منها في الأدنى فيصور لنا الموجودات على مراتب ، أعلاها واجب الوجود وأدناها الهيولي .

والموجود الأول فعل خالص ووجود محض ، وكل ما عداه ممكن الوجود ، حتى تنتهي إلى الهيولي وهي إمكان خالص وهي من أجل ذلك عدم وهكذا تندرج الموجودات من الوجود إلى العدم ، ويتبين تأثير الأجسام السماوية في العناصر الأرضية ، إذ هي تحركها وتخلطها فتنشأ عن ذلك موجودات شتى مختلفة الدرجات خاضعة لتأثير الأفلاك والعقل الفعال.(نفس المرجع السابق ، ص515)

يتضح من هذا أن أول الموجودات في استحقاق الوجود هو الجوهر المفارق غير مجسم ويليه في ذلك الصورة ، ثم الجسم ، ثم الهيولي ، ثم العرض .

المطلب الثاني: جوهر النفس عند ابن سينا

يرى ابن سينا أن النفس جوهر مستقل قائم بذاته له علاقة ما بالبدن وهي تفعل في البدن وتنفعل عنه ، وإن الصور العقلية يمكن أن تكتسبها النفس بواسطة التجريد العقلي المعتمد أساساً على الحس.(جميل صليبا ، 1995 ،ص258)

والنفس هي من طبيعة مختلفة عن طبيعة البدن ،وإنها من عالم خاص هو عالم الجواهر المفارقة ،وإن اتصالها بالبدن اتصال عارض وهذا الاتصال يمنعها من إدراك المعقولات خالصة بقوله : (النفس ممنوعة من قوى البدن عن الإنفراد بذاتها ومدركاتها ، فالإدراك الحاصل لها متخيل ولا معقول مطلق لكونها منجذبة إلى المحسوسات وهي مستولية عليها ولم يقع لها إلف بالمعقولات ولا معرفة بها لكن تطمئن إلى عالم الحس واثقة به غير شاكة فيه وتقع في الوهم وأن العقليات غير موجودة وإنما هي موهومة).(نفس المرجع السابق ، ص299)

وفي حدوث النفس يرى ابن سينا أن النفس ليست موجودة قبل البدن ،وإنما هي حادثة معه تفيض عليه من العقل الفعال عند استعداده لها ودليله على حدوثها أنها (متفقة في النوع والمعنى ، فإن وجدت قبل البدن ، فإما أن تكون متكثرة الذوات أو تكون ذاتاً واحدة) (ابن سيناء (د.ت)، ص300).

ومحال أن تكون متكثرة الذوات ، لأن هذا التكثر لا يكون إلا من جهة الماهية والصورة ، أو من جهة العنصر والمادة .

والنفس هي الإنسان على الحقيقة ، فليس الإنسان هو الهيكل الجسماني المحسوس ، وإنما هو الجوهر السامي الذى يقطن في هذا الهيكل ويضفي عليه قيمته ،والنفس الإنسانية عالم قائم بذاته يشبه الكون في تنظيمه وإحكامه ، ولهذا يردد ابن سينا مخاطباً الإنسان منبهاً إياه إلى جوهره وعظم شأنه. (مرحبا ،2000 ، ص521)

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

فالنفس عنده عالم مستقل قائم بذاته ،هو في تربيته ونظامه صورة مصغرة عن العالم بأسره ، أنها العالم الأصغر في مقابله العالم الأكبر ، فهي صورة الكل ومرآة الكل .

ابن سينا يرى أن الإنسان مركب من جسد ونفس وليس بين الجسد و النفس اتصال في الجوهر ، وكما أن الأجسام كلها توجد من امتزاج بين الجسد والنفس اتصال في الجوهر .

وكما أن الأجسام كلها توجد من امتزاج العناصر بفعل الكواكب ، فالجسم الإنساني ينشأ من أحسن الأمزجة العنصرية اعتدالاً .

ويرى ابن سينا أن هناك جواهر مجردة وهي بسائط وتدرك بالعقل لأنها صورة خالصة والعقل والنفس كلاهما جوهران مجردان .

ويتفق مع أستاذه الفارابي في العديد من الأشياء من بينها ترتيب الموجودات وتأثير الأعلى منها في الأدنى وأعلاها واجب الوجود وأدناها الهيولي .

المطلب الثالث : دور الجوهر في المعرفة

نبه ابن سينا إلى أن الصورة العقلية التي تحصل في الذهن بالتجريد عن المحسوسات يمكن أن تنقسم ، وهذا الانقسام ليس انقساماً مادياً كانقسام الجسم

إلى أجزاء مادية ، بل هو انقسام عقلي ، عبارة عن تفريغ وتنويع في أشكال الصور العقلية .(لطف ، 1978 ،ص277 ، 278) والصورة العقلية الموجودة في الذهن تعد أعراضاً وليست جواهر فهو يرى أن الصور المعقولة للجواهر تعتبر أعراضاً في الذهن ، وليست جواهر فيه (والحاصل من العدم في الذهن هو غير الموجود في ماهيته وكذلك الصور المحسوسة من حيث هي محسوسة هي غير الصورة

الموجودة من حيث هي موجودة ، إن علمي بالجوهر وهو أنه في الأعيان لا في موضوع ، هو عرض وهو الموجود في ذهني ، وليس هو في الأعيان ، بل يكون من خارج إذاً في الأعيان ، ونحن نعلم أن في الأعيان وجوداً صفته كذا في الأعيان ، فوجود هذا المعنى في الذهن ليس هو ى في موضوع بل هو عرض).(نفس المرجع السابق ،ص290)

فالجسم يكون جوهراً ، وهو متمثل في العيان الخارجي ووجود هذا الجسم في الذهن يكون كفكرة عن هذا الجوهر التشخصي وهناك فرق بين جوهر كموجود خارجي ، له حدود وأشكال ونهايات ، وبين فكرة في الذهن عن هذا الجوهر بتلك الميزات ولذلك تكون تلك الفكرة عرضاً .

وبذلك يكون العقل موضوعاً تحل فيه العلوم والمعقولات فتتكون أعراضاً .

والمعرفة عنده لا تكون بالإحساس وحده لأن الإحساس لا يدرك المعاني المجردة ، بل يمزجها باللواحق الحشية والعلائق المادية من كم وكيف ووضع وغير ذلك ، فهو لا يدرك الكليات بل يدرك الجزئيات ، وكما أنه ليس من شأن المحسوس من حيث هو محسوس أن يعقل ، كذلك ليس من شأن المعقول حيث هو معقول أن يحس .(جميل صليبا ، 1995 ص258).

المطلب الرابع: : خلود جوهر النفس

لم يتردد ابن سينا في القول بخلود النفس وهو شيء غير مجسم ولا قوة في جسم بل هو لا محالة جوهر آخر غير مجسم ، أنه جوهر روحاني شريف مفارق.

كما يؤكد أن جوهر النفس الذي هو الإنسان على الحقيقة لا يفنى بفناء الجسد ولا يبلى بعد المفارقة عن البدن بل هو باق لأن جوهره مغاير لجوهر البدن وأقوى منه فهو محرك هذا البدن ومدبره ومتصرف فيه ، و البدن منفصل عنه تابع له فسواء بقي البدن أم فني فإنها لا تتأثر به أنه هو الذي يتأثر بها إذ هي تدبره وتقوده إلى الفعل و الإدراك. (نفس المرجع السابق ص546 ، 547)

وكانت النفس سعادتها عبارة عن التجرد التام عن البدن و اللحاق بعالم الجواهر المفارقة أي العالم العقلي الذي انبثقت عنه أصلاً .(ماجد فخري ، 1981، ، ص72) وفي هذا يقول الغزالي: (أنه مع أنها لا تحل البدن عندهم فلها علاقة بالبدن حتى لم تتحدث إلا بحدوث البدن ، وهذا ما اختاره " ابن سينا" و المحققون منهم ، وأنكروا على " أفلاطون" قوله: إن النفس قديمة ويعرض لها الاشتغال بالأبدان بمسلك برهاني محقق). (الغزالي، 1993 ، ص190)

إذن النفس عند ابن سينا لا تموت بموت الجسم ، لأن كل شيء بفساد شيء آخر ينبغي أن يكون متعلقاً به نوعاً من التعلق ، والنفس منفصلة في وجودها عن البدن تمام الانفصال ، لأنها جوهر قائم بذاتها ، فليس تعلق النفس بالبدن معلولة بعلة ذاتية ، ويرى أن النفس جوهر مستقل قائم بذاته له علاقة ما بالبدن وهي جوهر بسيط حادث ولا يطرأ عليه فساد ولا فناء ولها صفة الخلود لأنها جوهر روحاني شريف .

الخاتمـــــــة

شغل مفهوم الجوهر فكر الإنسان منذ زمن طويل ففي كل عصر كان له تصور خاص يختلف باختلاف أنماط التفكير وباختلاف آراء المفكرين وقد ظهرت العديد من المحاولات الفلسفية لتفسير حقيقة وأصل العصور ومعرفة علله وأسبابه فاتجه الإنسان قديماً إلى الأساطير والخرافات كمحاولة لتفسير هذا الوجود وإجابة الأسئلة التي طرحها الإنسان على نفسه لحل أسرار هذا الغموض ثم تطور عقل الإنسان شيئاً فشيئاً إلى أن وصل إلى الحلول التي قدمها ابن سينا.

وقد توصلت هذه الدراسة إلى النتائج التالية :-

1- رغم تأثر الفلاسفة المسلمين بالفلسفة اليونانية إلا أن هناك فروقاً عديدة سببها اعتماد المسلمين على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فقد كان الفلاسفة المسلمون يأخذون ما

يتمشى مع العقيدة الإسلامية ويرفضون بشدة ما يتعارض مع هذه العقيدة فقد عارض الفلاسفة المسلمون فكرة (المحرك الذي لا يتحرك) وقدم العالم وأزلية الجوهر و أبديتها ، كما أن أغلب المسلمين- ومن بينهم ابن سينا- رفضوا إطلاق لفظ الجوهر على الخالق سبحانه وتعالى .

2- هناك أساس ديني إسلامي هو الذي يجعل فكر الجوهر عند ابن سينا طابعاً متميزاً عن فكرة الجوهر عند اليونان إضافة إلى الأدلة السابقة هناك فكرة الأحداث من العدم واستمرارية الخلق وهذه أيضاً لم تكن معلومة عند اليونان .

3- حتى وإن تأثر ابن سينا بالثقافات الأجنبية فإنه انتقدها وأضاف إليها وهدم منها ما يستحق الهدم وما لا يتماشى مع العقيدة الإسلامية ، وطور منها ما يخضع للتطور ، ثم إنه لا يمكن قطع الفكر عن أصوله وجذوره مهما كانت التأثيرات قوية وغنية بالثقافات العالمية ، فالمسلمون لم ينكروا اطلاعهم وتأثرهم بالفلسفة اليونانية خلافاً لما حدث مع الأوروبيين الذين يتنكرون لفضل الحضارة الإسلامية التي أمدتهم بشتى أنواع المعارف .

المصادر والمراجع

- ابن سيناء ، النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعية والإلهية ، تقديم ماجد فخري ، دار الأفاق الجديد ، بيروت لبنان .
- - ابن سيناء ، (د.ت)، النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعية والإلهية ، تقديم ماجد فخري، بيروت لبنان ، دار الأفاق الجديد .
- جميل صليبا ، 1995 ف، تاريخ الفلسفة العربية، ط3 ، بيروت ، لبنان ، الشركة العالمية للكتاب .
- محمد عبد الرحمن مرحبا ، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ، مج2 .

- الغزالي ، تهافت الفلاسفة ، تقديم وتعليق جيرار الجهامي ، دار الفكر اللبناني ، الطبعة الأولي ، بيروت لبنان 1993 ف.

- الغزالي، تهافت الفلاسفة ، 1993 ف، تقديم وتعليق جيرار الجهامي ، ط1 ، بيروت لبنان، دار الفكر اللبناني .

- إبراهيم مذكور في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق ، دار المعارف الجزء الثاني ، القاهرة ، مصر ، (د.ت).

- جميل صليبا ، 1995 ف، تاريخ الفلسفة العربية، ط3 ، بيروت ، لبنان ، الشركة العالمية للكتاب .

- حسين مروه ، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ،دار الفارابي ، الجزء الأول ،بيروت لبنان ، 1981 ف.

- س . بينيس ، مذهب الذرة عند المسلمين وعلاقته بمذهب اليونان والهنود ، ترجمة محمد عبدا لهادي أبو رويده ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1946 ف .

- سامي نصر لطف ، 1978 ف ، فكرة الجوهر في الفكر الفلسفي الإسلامي، ط1، مكتبة الحرية الحديثة

- ماجد فخري ، مختصر تاريخ الفلسفة العربية ، دار الشورى ، الطبعة الأولى ، بيروت لبنان ، 1981 ف.

- محمد عبدالرحمن مرحبا ، 2000 ف، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ، ،مج1 ، بيروت لبنان، عويدات للنشر والطباعة .

- يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ، 1966 ف.